كتاب سيبويه في المغرب والاندلس *

الاستاذ : محمد حجي

تمهيد تاريخي :

يتصل كتاب سيبويه بالدراسات اللغوية والنحوية في المغرب والاندلس اتصالا وثيقا عبر العصور ، ويرجع احتكاك هذه البلاد باللغة العربية الى عهد الفاتحين المسلمين في القرن الهجري الاول . وكانت عجمة لسان سكان هذه المناطق مدعاة الى اقبالهم على تعلم لغة القرآن منذ ان اخذ الاسلام ينتشر بينهم ، والعرب يقيمون بين ظهرانيهم . وقد بدأ تعلم اللغة العربية في المغرب الاسلامي بطريق المحاكاة والتعبير الشفوي البسيط ، وحفظ آيات وسور من القرآن الكريم لاداء الشعائر الدينية ، قبل ان يميل الى استكناه أسرار اللغة والتعرف على قواعدها ، حينما رسخت قدم الاسلام في هذه البلاد ، واصبحت جزءا لا يتجزأ من الدولة الاسلامية الكبرى . لاسيما عندما اخذت تنتشر الحركة الفكرية ، الدينية واللغوية ، القائمة في المشرق آنذاك ، وتتردد اصداؤها في ارجاء المغرب والاندلس .

كان من الطبيعي ان يحدث مثل هذا في الجناح الشرقي من الامبراطورية الاسلامية ، غير ان قيام مدينتي البصرة والكوفة في العراق . واقبال علمائهما من عرب وفرس على جمع اللغة العربية وفلسفتها بتقعيد القواعد واستنباط الاحكام والضوابط ، اسرع الخطى بتلك الاقطار في ميدان العلوم اللسانية ، وخولها قصب السبق في هذا المضمار ، حتى انجبت من الاعلام امثال الخليل بن احمد ، ويونس بن حبيب وسيبويه الذين اصبحوا ائمة العربية في كل زمان ومكان .

لقد دخل النحو الى المغرب والاندلس مع تلاميذ هؤلاء الائمة الذين هاجروا من المشرق فحطوا رحالهم بالقيروان وفاس وقرطبة ، واملوا على المتعلمين في هذه البلاد ما حوته صدورهم وتراطيسهم من علم غزير . ولئن عرفت الاوضاع السياسية بهذا الجناح الغربي من العالم الاسلامي تقلبات كثيرة خلال القرون الهجرية الاولى ، فان الحركة الثقافية ، ومن ضمنها العلوم اللسانية ، لم تنثن عن طريقها او تقف عند الحدود المصطنعة التي كانت تنتصب حاجزا هنا وهناك ، تتقدم تارة وتتراجع اخرى . فتابع العلماء نشاطهم الفكري في هذه البلاد ، سواء في العهد الذي كانت فيه سلطة خلفاء دمشق او بغداد تصل الى المحيط الاطلنطي وجبال البرانس ، او عندما انفصلت المنطقة عن انظارهم بزعامة الامويين في الاندلس ، والادارسة في المغرب ، والاغالبة ثم الفاطميين بافريقية .

وابتداء من القرن الهجري الرابع ، دخل الغرب الاسلامي مرحلة النضج والتفتح الفكري ، حيث اخذت مساجد قرطبة بصفة خاصة ، تعج بأعلام العلماء ، ومكتباتها تزخر بمختلف المؤلفات اللغوية والنحوية والادبية ، ايام عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر . وتأكدت شخصية هذه المنطقة في القرون التالية مع المرابطين والموحدين الذين تمكنوا طوال قرنين ونيف من اقامة امبراطورية انتظمت في سلكها اقطار شمال افريقيا والاندلس ، فكان العلماء ينتقلون في ارجائها الفسيحة ، يملون ويؤلفون ، وينالون من ضروب الاكرام والتشجيع الوانا . وفي هذه الفترة بالذات نالت الدراسات اللغوية والنحوية والادبية اوفى نصيب ، وراج كتاب سيبويه اعظم رواج .

ثم كانت زوابع ومحن في الغرب الاسلامي خلال القرن الهجري السابع كادت تعصف بثقافته ، لولا جهود المرينيين الضخمة فيما بعد ، والمتمثلة

---

* من محاضرة القيت بالمؤتمر العالمي الذي اقامته جامعة بهلوي بشيراز لتكريم امام النحاة سيبويه بمناسبة مرور اثني عشر قرنا على وفاته ، من 27 ابريل الى 2 ماي 1974

فى حشد المساجد والمدارس الفخمة وتشجيع المعلمين والمتعلمين فى كل جهات المغرب ، وفى تقديم العون المادى والمعنوى لملكة غرناطة ، فكان لذلك الاثر المحمود فى احياء ذماء العلم بالمدونتين، واعطى الدراسات اللغوية والنحوية فيهما ، وبخاصة كتاب سيبويه نفسا جديدا .

ولما حم القضاء ، وحلت النكبة الكبرى بالمسلمين فى الاندلس فى نهاية القرن التاسع آوت النعدوة الجنوبية مختلف المقومات الحضارية مع آخر المهاجرين الاندلسيين ، واصبحت مدينة فاس دار مقام لعدد عديد من الاسر النبيلة ، وفى مقدمتها اسرة ابى عبد الله النصرى آخر ملوك بنى الاحمر ، وعمر اندلسيون آخرون مدن تطوان والرباط والقصبة ، واستوطن غيرهم حتى قمم الجبال وحدور الاودية ، وبلغوا بساتط سوس الاقصى .

وبذلك امتزجت الحضارة الاندلسية بالحضارة المغربية امتزاجا نهائيا ، ولم تنطفىء ذبالة تلك الثقافة الاصيلة ، ومعها الدراسات النحوية وكتاب سيبويه ، لم تنطفىء فى المغرب الى ايام الناس هذه .

الدراسات النحوية فى المدونتين :

بدات الدراسات النحوية بالمشرق ، كما هو معلوم ، فى زمن مبكر ايام الخلفاء الراشدين ، وتوالت بعد ذلك الى ان ظهر فى البصرة الخليل ابن احمد الفراهيدى فى منتصف القرن الهجرى الثانى (فوضع الاسس ونهج الطريق ، تاركا امر تدوين القوانين النحوية الى تلميذه ابى عمرو بن عثمان سيبويه واضع « الكتاب » المشهور . وقد يكون هذا الكتاب من بين الاسباب التى ادت الى احتدام الخصام بين المدينتين المتنافستين : البصرة والكوفة ، ذلك الخصام الذى انجلى عن قيام مدرستين نحويتين ، احداهما ، وهى مدرسة البصرة ، تسندها الاصالة والمنطق ، اذ وضعت قوانين عامة حسب مقاييس معقولة واهملت الشواذ وما خالف الاستعمال المشهور عند جمهور العرب ، فحصرت بذلك اللغة العربية فى قوالب محكمة وصيغ مضبوطة يسهل — نسبيا — ادراكها والاحاطة بها . والثانية ، وهى مدرسة الكوفة ، ساندها البلاط العباسى وشد ازرها لاغراض لا علاقة لها بموضوع اللغة وقواعدها . هذه المدرسة الثانية ولو انها استطيفت فى البداية بصبغة علمية محضة ، فانها تحولت الى ما يشبه مسجد الضرار ، خارمة القوانين اعتمادا على سماعات شاذة او منحولة ، وشعبت الى حد كبير سبل تحصيل النحو ، او افسدته على حد تعبير السيوطى .

ثم تدارس علماء بغداد بعد ذلك آراء المدرستين المتنافستين ، فوازنوا واستظهروا ، وخطاوا ورجحوا . ونتج عن ذلك ظهور مدرسة بغدادية جديدة ، هى مزيج من مذهبى البصريين والكوفيين .

وقد تلقى الغرب الاسلامى قواعد اللغة العربية بمذاهبها الشرقية الثلاثة ، عن طريق النحاة المهاجرين ، ومعظمهم جاءوا من بغداد ، فاخذوا من كتاب سيبويه اساسا للتعليم ، لانهم بدورهم اخذوه عن شيوخ بصريين او مشايعين لمذهبهم . ولانتشار المدرسة البصرية فى المغرب والاندلس ، وسيادتها فى العهود الاولى على ما عداها من المدارس النحوية اسباب يمكن اجمالها فيما يلى :

اولا — ان المذهب البصرى اكثر اصالة ومنطقية ، واقل تشعبا وتمحلا .

ثانيا — وجود كتاب سيبويه بين ايدى الناس ، لا يزاحمه كتاب آخر للفراسى او الكسائى او غيرهما من الكوفيين . والكل يعلم ان هؤلاء لم يؤلفوا ما يمكن ان يضاهى او يقارب كتاب سيبويه وانما هى رسائل وكراريس لا تذكر امام الكتاب .

ثالثا — مناصرة العباسيين لعلماء الكوفة ، وايثارهم اياهم بتعليم ولاة العهد وابناء كبار رجال البلاط ، جعل الناس فى الغرب ينفرون من هذا المذهب بعد ان خاصموا خلافة بغداد وخلعوا طاعتها .

على ان ذلك لم يصرف علماء المغرب والاندلس نهائيا عن النظر فى مسائل الخلاف ، فتعرفوا عن آراء مختلف الفرق ، ونظروا بخاصة فى القضايا التى اخذت على البصريين فاثبتوا منها وابطلوا ، وانتقدوا بدورهم بعض آراء البصريين ، ومسائل من كتاب سيبويه نفسه ، وخرجوا هم ايضا بمدرسة نحوية جديدة ، هى المدرسة المغربية الاندلسية التى تحدث عنها ابن خلدون فى غير ما موضع من المقدمة .

وفيما يتعلق بالاقبال على دراسة اللغة العربية وقواعدها فى الغرب الاسلامى ، نلاحظ وجود نفس الظاهرة الشرقية المتجلية فى وفرة العناصر الاعجمية الاصل من بين الدارسين . فكما كان سيبويه ودرستويه الفارسيتان مثلا من أعلام النحو العربى فى الشرق ، كان الجزولى وابن آجروم من برابرة السوس الاقصى من ائمة هذا الفن فى الغرب . وظلت كتبهم جميعا تقرأ وتشرح على تعاقب الحقب والاجيال . غير ان من المفارقات التى لا ينبغى اغفالها فى هذا الباب ، أنه اذا كانت العناصر الغير العربية فى الشرق ، وبخاصة الفارسية قد اخذت تعود الى لغتها الاصلية منذ زمن غير بعيد عن عصر سيبويه ، فان السوسيين فى المغرب ظلوا يتعلمون لغة القرآن ويعلمونها ويؤلفون فيها مآت الكتب الى اليوم . وقد نشر المرحوم المختار السوسى منذ بضع سنوات تراجم علماء هذا الاقليم المغربى وآثارهم الضخمة فى اللغة العربية وغيرها ، فى كتابين هامين : **سوس العالمة** ، **والمعسول** ، ويقع هذا الاخير فى عشرين مجلدا .

مركز كتاب سيبويه :

لعل أصدق تعبير عن المكانة المكينة لكتاب سيبويه فى نفوس المغاربة والاندلسيين انه ظل معتمدهم الاساسى فى الدراسات العليا لم يستبدلوه بغيره طوال القرون . ولا ينهم من وجود كتب دراسية نحوية فى هذه المنطقة أنها حلت محل **الكتاب** ، وانما هى مقدمات وأراجيز وضعت للمبتدين والقاصرين عن ادراك مسائل **الكتاب** وذلك **كمقدمتى** الجزولى وابن آجروم ، **والفيتى** ابن معطى وابن مالك وما اليها من شروح وحواش . ومع ذلك بقى **الكتاب** مجال براعة المبرزين من شيوخ النحاة وملتقى النجباء (الشادين) من الطلاب . هذا بالاضافة الى وفرة عدد حفاظ **الكتاب** والمشتغلين بالكتابة عليه شرحا وتعليقا واستدراكا . ومن نماذج حفاظ **الكتاب** المغاربة ابو عنان **العسكورى** ، موسى بن يعومين صاحب كرسى **كتاب سيبويه** فى القرويين . فقد ذكروا فى ترجمته أنه فتح بين يديه يوما **كتاب سيبويه** بالقرويين فى ثلاثة مواضع ، فقرأ فى كل موضع مقدار ثلاثة أحزاب عرضا عن ظهر قلب . وكان ذلك بتدبير من منافسيه الذين راموا اعجازه على رؤوس الملا لما كان فى طبعه من حدة وفى لسانه من سلاطة . كما يعتبر الاعلم الشنتمرى يوسف بن سليمان الاشبيلى من أبرز نماذج الاندلسيين الذين شرحوا الكتاب وعلقوا عليه . فهو قد الف كتاب **تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الادب فى علم مجازات العرب** المطبوع مع **كتاب سيبويه** فى طبعة بولاق شرح فيه شواهد **الكتاب** الشعرية التى تنيف عن الف بيت ونسبها الى اصحابها . والف ايضا كتابا جمع فيه **النكت فى كتاب سيبويه** ، ورسالة مطولة فى المسالة الزنبورية الشهيرة ، اوردها المقرى بتمامها فى نفح الطيب ، الجزء الرابع من طبعة بيروت الاخيرة .

اشهر الدارسين لكتاب سيبويه :

تكاثر عدد الدارسين **لكتاب سيبويه** فى المغرب والاندلس عبر العصور تكاثرا يجعل من العبث محاولة تعدادهم بل الاحاطة بهم ، ولو اتسع مجال القول . غير انه لن يكون دون فائدة فى ختام هذا العرض الوجيز الاشارة الى بعض الاعلام البارزين منهم تمثيلا لما سبق وتوثيقا .

نذكر فى البداية ثلاثة من النحاة المشارقة الذين دخلوا المغرب والاندلس فى القرون الاسلامية الاولى وكان لهم فضل السبق فى نشر النحو واللغة والادب وكتاب سيبويه فى هذه الديار . وهم :

أبو اليسر الشيبانى ، ابراهيم بن احمد البغدادى ، تلميذ عالمى البصرة المبرد والجاحظ ، وصاحب الشاعر فى أبى تمام والبحترى . حمل معه الى المغرب علما غزيرا ، وانصرف جل اهتمامه الى **كتاب سيبويه** ، حتى انه كتب منه نسخة فى أخريات حياته بقلم واحد ما زال يبريه حتى قصر فادخله فى قلم آخر وكتب به حتى فنى بتمام الكتاب . وكانت خاتمة مطاف ابى اليسر مدينة القيروان حيث توفى عام 298 .

وأبو على القالى ، اسماعيل بن القاسم البغدادى ، صاحب **النوادر والامالى** ، **والمقصور والممدود** ، **والبارع** ، وغيرها من كتب اللغة والنحو والادب . وقد على عبد الرحمن الناصر الاموى عام 330 وعاش بقرطبة يدرس ، فى جملة ما يدرس ويملى « **كتاب سيبويه** » ، وكان قد أخذه فى بغداد من ابن درستويه عبد الله بن جعفر الفارسى . وعرف القالى بتدقيق النظر فى **الكتاب** والانتصار للبصريين الى أن توفى عام 356 .

وصاعد البغدادى ، أبو العلاء بن الحسين -

دخل الاندلس ايام المنصور بن ابى عامر ، فاهتبل بمقدمه وأراد ان يعنى به على آثار ابى على القالى الوافد من قبل على بنى أمية . لكن قلة خبرة صاعد بكتاب سيبويه عرضته الى السخرية والاهمال ، ولم يشفع له لدى الاندلسيين ما املاه عليهم من كتاب النصوص . فقد ذكروا ان صاعدا دخل يوما على المنصور فى مجلس ضم نحاة الاندلس وادباءها فسأله عن ابى سعيد السيرافى ، فزعم صاعد انه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه ، فبادره العامرى بسؤال عن مسألة من الكتاب فلم يحضره جوابها، واعتذر بان النحو ليس جل بضاعته ، فكان ذلك بداية الشؤم الذى ظل يلاحق صاعدا فى جهات الاندلس الى ان اجلاه عنها ايام الفتن الى جزيرة صقلية حيث مات مغربا حوالى عام 410 .

أما النحاة الاندلسيون والمغاربة الذين علقوا بكتاب سيبويه وبرعوا فى تدريسه والتعليق عليه ، فياتى فى طليعتهم ابنا العم الاشبيليان الزبيديان ابو محمد وابو بكر .

قرأ ابومحمد عبد الله بن محمود الزبيدى النحو بمسقط رأسه فى الاندلس ودرس كتاب سيبويه ووضع عليه شرحا من احسن ما شرح به الكتاب . ثم تاقت نفسه الى لقاء كبار النحاة بالمشرق ، فرحل الى بغداد ولازم ابا سعيد السيرافى ثم ابا على الفارسى . ولما انتقل هذا الاخير الى فارس سار معه ابو محمد الزبيدى اليها فدعاه الفرس أبا عبد الله الاندلسى . وتضايق ابو على الفارسى من هذا الالحاح فى الطلب والرغبة فى الاستفادة ، فكان يقول للزبيدى على رؤوس الملأ : (ان والله على وجه الارض أنحى منك) وادركت الوفاة أبا محمد الزبيدى ببغداد عام 372 .

أما ابو بكر الزبيدى فلم يغادر بلاد الاندلس ، وظل يدرس كتاب سيبويه فى اشبيلية الى ان دعاه الحكم المستنصر الى قرطبة ليؤدب فيها ولى عهده هشام ، وكانت له فى عاصمة الامويين مجالس نحوية عالية على غرار مجالس ابى على القالى السابقة . وألف ابو بكر الزبيدى فى جملة ما ألف استدراكا على كتاب سيبويه ، ومات وهو قاض باشبيلية عام 379 .

ونجد فى العدوة الاخرى ، أبا محمد الزقاق ، قاسم بن محمد ابن الحاج ، شيخ النحاة فى المغرب ، يدرس كتاب سيبويه فى كل من فاس وسبتة وسلا ، مكونا حلقة أولى فى سلسلة نحوية ستطول أجيالا عديدة . وكانت وفاته بمدينة سلا عام 559 .

— ومحمد بن أحمد ابن طاهر الانصارى الاشبيلى قرأ بالاندلس والمغرب ، واستوطن مدينة فاس قائما على تدريس كتاب سيبويه ، وله تعليق على الكتاب . واقسم أن يقرئه فى البصرة حيث وضعه سيبويه ، وبر ابن طاهر بقسمه فحج ودرس الكتاب بمصر والبصرة مدة ، ومرض فى طريق رجوعه ، فمات فى بجاية بالمغرب الاوسط عام 580 .

ومن أبرز تلاميذ الاماميين الزقاق وابن طاهر :

ابو الحسن بن خروف ، على بن محمد الحضرمى ، وهو اندلسى الاصل قرأ كتاب سيبويه بفاس واشبيلية ومراكش وغيرها ، ووضع عليه شرحا عجيبا سماه تنقيح الالباب فى شرح غوامض الكتاب ، وله رسائل عديدة فى مناظرة كبار نحاة عصره .

وعمر بن عبد الله السلمى الاغماتى (اغمات قريبة من مدينة مراكش) لم يصرفه منصب القضاء الذى أسند اليه فى تلمسان وفاس واشبيلية عن تدريس كتاب سيبويه فى هذه المدن كلها ، الى ان ادركته الوفاة نحاة باشبيلية وهو بها قاض عام 603 .

— وأبو القاسم بن الملجوم ، عبد الرحمن ابن عيسى الازدى . واسرة ابن الملجوم من انبل اسر فاس ، تسلسل فيها العلم والجاه والثروة نحو عشرة قرون . وكانت لهم مكتبة من اعظم المكتبات الخاصة فى المغرب الاسلامى . درس ابو القاسم على كبار نحاة عصره فى المغرب والاندلس وناظر شيخه ابن طاهر فى نحو الثلث من كتاب سيبويه . واقرأ الكتاب مدة غير قصيرة فى جامع القرويين الى أن توفى بفاس عام 604 .

— والامام الشلوبين ، عمر بن محمد ، شيخ نحاة اشبيلية قبل ان ينتزعها المسيحيون من يد المسلمين . كان يدرس بها كتاب سيبويه ، وكتب تعليقا مهما طارت شهرته شرقا وغربا .

ومن أبرز المتخرجين على يد الامام الشلوبين :

ابو محمد الانصارى ، عبد الله بن على . وانتقل بعد سقوط اشبيلية فى يد النصارى الى مدينة سبتة بالعدوة المغربية ، فاستوطنها ودرس بها كتاب سيبويه الى أن توفى عام 647 .

عاصر ابا محمد الانصارى فى سبتة نحوى آخر شهير هو :

ابو الحسن الشارى . على بن محمد الغافقى ، كان الكتاب ممتهده فى مرحلتى التعلم والتعليم ، وتوفى بعد الانصارى بعامين .

ومن ابرز الشخصيات النحوية فى القرنين الهجريين السابع والثامن :

الامام المدنى ، محمد بن يحيى النعبدرى . اشهر المتخرجين على ابن خروف والقائم مقامه فى تدريس كتاب سيبويه فى القرويين بفاس ، توفى رحمه الله شهيدا فى احدى المعارك ضد المسيحيين بجبل الفتح المعروف اليوم بجبل طارق عام 651 .

وابو حيان الجياني ، امير المؤمنين فى النحو . كان ملتزما الا يقرىء غير كتاب سيبويه ، او تسهيل ابن مالك للذين لم يتأهلوا بعد لخوض غمار الكتاب . وكان ابو حيان سلفيا معجبا بآراء ابن تيمية ، شد الرحلة اليه من الاندلس ، واقام معه مدة فى دمشق ، الى ان خطأ ابن تيمية سيبويه وكذبه فكان ذلك سبب اعراض ابى حيان عنه وذهابه مغاضبا الى القاهرة . حيث ادركته الوفاة عام 745 .

ومن اشهر السيبويهيين المغاربة فى القرون المتأخرة :

ابو زيد المكودى ، عبد الرحمن بن صالح ، امام النحاة فى عصره ، ومؤلف الشرح الشهير على الفية ابن مالك . كان صاحب كرسى كتاب سيبويه فى القرويين الى ان توفى بفاس عام 807 .

وابو عبد الله البمقيلى ، محمد بن ابراهيم ، من قرية آيت الطالب فى السوس الاقصى بجنوب المغرب ، كان يستظهر كتاب سيبويه ويدرسه لنجباء طلبة البادية عقودا عديدة من السنين . وكانت وفاته عام 976 .

وابو العباس الدلائى ، احمد الحارثى بن محمد بن ابى بكر . تخصص من بين قومه العلماء فى تدريس كتاب سيبويه بزاويتهم الدلائية فى جبل الاطلس المتوسط بالمغرب ، الى ان توفى عام 1051 .

وابو عبد الله الدرعى ، محمد بن ناصر ، عاش فى قرية تامكروت بصحراء المغرب يدرس كتاب سيبويه وتسهيل ابن مالك . الى ان لقى ربه عام 1085 .

وبعد فان كتاب سيبويه ظل محط عناية النحاة المغاربة والاندلسيين منذ حمله اليهم تلاميذ سيبويه فدرسوه وشرحوه واستدركوا عليه وانتقدوا بعض مسائله ، ودافعوا عن ينتقصه بغير حق . ومازالت كلية اللغة العربية بمراكش التابعة لجامعة القرويين حتى اليوم تضع كتاب سيبويه فى طليعة المواد التى يدرسها طلبة الدراسات العليا بها .

الرباط ـ محمد حجى